سورة الكهف

[مثل الحياة الدنيا]

۞ قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ

يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ
أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا
﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ
نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾
وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ
زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا
يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾
۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا
كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ

ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾
وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا
مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ
وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ
جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ
يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ
وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن
يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم
بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن
دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا
لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ [الكهف: ٣٢- ٥٩]. [٣٧]

[شرح٣٧] في هذه الآيات الكريمات تَذكيرٌ من رَبِّنا عز وجل لعِبادِه لحال الدُّنيا وحَقارتِها وزَوالِها وانتِهاءِ أَمرِها، وأنَّ هناك بَعدَها أمراً =

.....

= عظيماً، وهو أمرُ العَرْضِ على الله عز وجل، ومجُازاةِ العباد بأعمالهم خَيرِها وشَرِّها، ثُمَّ مَصيرهم إلى دار الهَوانِ أو للنَّعيم والسُّرور والحَبْرَة.

ويُذكِّر أيضاً بعد ذلك بالشَّيطان وحالِه، وعَداوتِه وذُرِّيَّتِه لبَني آدمَ، تحذيراً من طاعته وحَثّاً على عِصيانِه ومُخالفتِه.

ويُذكِّر بحال العباد، وما يجب عليهم عند مَجيء الرُّسل من الطاعة والاستقامة والامتثالِ لهم.

ويحذر أيضاً من الإعراض عن ذِكْر الله عندما يُذَكَّر ويُوعَظ وينبَّه، وأنَّ الواجبَ على العبد في مثل هذه الحال الاستجابة والمبادرة إلى طاعة الله ورسوله، وأنه لا أَظلَمَ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات ربِّه فأَعرَضَ عن ذلك ونَسِيَ ما قَدَّمتْ يَداه من الشَّرِّ والفسادِ، فليس هناك أَظلَمُ من هذا الصِّنف من النّاس، الذين يُذكَّرون بآيات الله وحُجَجِه وبيِّناته، ويذكَّرون بحقِّه عليهم، ويذكَّرون بنِعَمه سبحانه وتعالى، ثم يُعرِضون عن ذلك ولا يُبالون ولا يَنتبهون، ويَنسَون ما قدّموا من أعمالٍ سيِّئةٍ وقضايا خطيرةٍ، ويَرتعون كما تَرتعُ الأنعام، =

.....

= ولا يُبالون بما وَراءَ ذلك.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، فربُّنا عز وجل يضرب الأمثالَ للنّاس لِيَعُوا ويتذكَّروا، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، هذا شأْنُ الدُّنيا، مَثَلُها كمَثَل هذا النَّبات الذي بعد نزول المطر يخرجُ وينمو ويخضرُّ، ويُعجِبُ النّاظرين، ثم بعد مدَّةٍ يسيرة تمرُّ عليه الرياح فيَيْبَسُ ويتكسَّر، ويضمحلُّ وينتهي.

هذه الدنيا شأْنُها يَظهر عند الناس وبينَهم، بينما الإنسانُ فيها في نعمة وحَبْرَةٍ وسُرور وفي عز وغير ذلك من أنواع النِّعم، فإذا أصابته مصيبةٌ ونزلت به كارثةٌ؛ فتغيَّرت الأحوالُ وصار إلى حالٍ أخرى لا تُشبه الحالَ الأولى، فأصبح في ذُلّ وهوانٍ وفقر وحاجة، أو تَنزل به مُصيبةُ الموت، فيُرفَع من هذا النَّعيم ويَزول عنه إلى ما قدّم من أعمال سيِّئة، ومصائبَ عظيمةٍ وسيِّئاتٍ كثيرةٍ، يَبوءُ بسببها =

.....

= بغضب الله عز وجل وعظيم عقابه؛ نسأل اللهَ العافيةَ والسلامةَ.

فالمقصود أنَّ هذه الدّار لا يغترُّ بها إلا مغرورٌ، فليستْ دارَ نعيمٍ ولا دارَ إقامةٍ أو دارَ خُلْدٍ، ولكنها دارُ ابتلاءٍ وامتحان، ودار أَكدارٍ وأحزانٍ، ودار عملٍ وإعداد للآخرة لمن عَقَلَ. فينبغي للمؤمن وللعاقل أن لا يغترَّ بها، وأن لا يصيرَ فيها كحال الأَكثرين الذين ﴿يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]، فيجبُ على العاقل أن يَنتبه، وأن يعلم أن هذه الدّار برزخٌ وليست دار إقامة، ولكنها دارٌ خُلقت لغيرها لا للبقاء ولكن للفَناء، خُلقت ليعمل سكانها ما ينبغي أن يعملوا، ويُعِدُّوا ما ينبغي أن يُعِدُّوا، وليست داراً للإقامة، وليست داراً للخُلد، أو داراً يتنعَّم فيها أهلُها بدون مُنغِّصات، بل هي دار فيها الأَكْدار والأحزان، ثم بعد ذلك الزَّوال والاضمِحلال، وانتقال أهلِها منها إلى غيرها.

ثم يُبيّن سبحانه وتعالى أنَّ المال والبنين زينة هذه الحياة ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]، فلا ينبغي للعاقل أن يَغترَّ بالمال، ولو بلغ ما بلغ من أنواع النَّعيم والرّفعة =

.....

= والخدم والقُصور وغير ذلك، فهو زائل. وهكذا البَنون وإن أعجَبوه وإن حَمَوه وإن سَعَوا في مصالحه، فمَصيرُهم إلى الموت والزوال، وقد يكونون بعد ذلك أعداءً في آخر أمرهم، فقد يؤذونه ويضرونه ويسعون في أسباب هلاكه، فلا ينبغي أن يَغترَّ بالبنين وإن كانوا زينةً في الدُّنيا، لأنهم قد يكونون بعد ذلك شرّاً عليه ووَبالاً ونكداً، ولا سيَّما في آخر الدُّنيا ـ وفي مثل هذا العصر ـ عند غُربة الإسلام وقلَّة العلم، وغَلَبة الشَّهوات والهوى.

ولهذا قال بعده: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ فـ«الباقيات الصّالحات»: ما يُقدَّم من أعمال صالحة، من طاعة الله ورسوله، ومن أذكارٍ وصلواتٍ وصيامٍ وجهادٍ وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك، ومن هذا التسبيح والتهليل كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1]، أي: هذه الأذكار وأشباهها من الباقيات الصالحات، =

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٧٥)، وابن حبان (٨٤٠).

.....

= والباقيات الصالحات أشملُ وأعمُّ، نسأل الله التوفيق، ولا حول ولا قوَّة إلّا بالله*.

* س: كيف نجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨] وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]؟

ج: لا مُنافاةَ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، نعم، فهو سبحانه وتعالى يرى حسناتِه وما حصل بها من الخير العظيم، ومَحْوِ السيئات وما ترتَّبَ عليها من الأُجور المضاعَفة، فهذا يَرى حسناتِه بعَشر، وهذا يرى حسناتة بمئة ضعفٍ، وهذا يرى حسناته بآلاف الحسنات قد ضُعِّفت، وهذا يرى سيِّئاته باقية، وهذا يرى سيِّئاته مُحِيَتْ، وهذا يرى سيِّئاته قد بُدِّل بكلِّ سيئةٍ حسنةً؛ بسبب توبته الصّادقة وعملِه الصالح، فلا مُنافاةَ، فهو سبحانه يَرى هذا وهذا ويَرى ما يترتَّب على الجميع.

س: القول القائل: إن إبليس كان اسمه عبد الرحمن، وأنه كان من الملائكة. ما مدى صحة هذا القول؟

ج: الله أَعلم جلَّ وعلا فربُّنا أَخبر أنه من الجنِّ، وللعلماء في هذا قولان:

أحدهما: أن الجنَّ طائفة من الملائكة يقال لهم: الجنُّ؛ لاستخفائهم =

.....

= وعدم ظهورهم، وأنهم كانوا من جنس الملائكة، ولكن لهم حالة أخرى في الصفة، ثم خرج عن حال الملائكة، وفسق عن أمر الملائكة، وخرج عن طاعة الله وعصى، وتكبّر على آدم ولم يسجد، فطرده الله ولعنه وأبعده.

والقول الثاني: أن الجنَّ غير الملائكة، أي: من جنس آخر وعنصر آخر خُلق من النار، كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وهذا هو الأقرب والأظهر، فإن المخلوقات من الملائكة الإنس والجن أقسامٌ ثلاثة: قسم خُلق من النُّور: وهم الملائكة. وقسم: خُلق من النّار: وهم الجنُّ، وأبوهم ورأسُهم الشَّيطان. وقسم: خُلق من طين: وهم الإنس، ورأسُهم وأبوهم آدم عليه الصلاة والسلام.

فالشيطانُ وذريتُه الذين تمرَّدوا وعَتَوا عن أمر الله وهم أعداؤنا، ومَن صلح منهم وأطاع ربَّه ولم يتَشيطَن مثل أبيه، فهو من إخواننا في الله عز وجل، ولهذا قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]، فالمقصود أن الجنَّ فيهم الصالح وفيهم الطالح، فيهم المبتدع وفيهم السنّي، وفيهم الكافر وفيهم الفاسق. والشياطينُ من الجن هم الأعداء، أي: خرجوا عن طورهم وما يجب عليهم، حتى صاروا أعداء لعباد الله، وصاروا شراً على عباد الله، وما من إنسان إلا معه ملك ومعه شيطان، قرينه من الملائكة وقَرينه من الشياطين. =

.....

= **س: هل يعني ذلك أن الجن أصلهم وأبوهم هو إبليس؟**

ج: هذا المشهور عند جمع من أهل العلم، أن إبليس هو رأسهم وأبوهم، كما أن آدم هو أبو الإنس، وهو اختيار أبي العبّاس ابنِ تيميَّة، وابنِ القيم وجماعة.

س: في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أن الملائكة سجدوا لآدم، وكان إبليس من الساجدين، إلا أنه رفع رأسه من بينهم؛ فقرأَ هذه الآيةَ، فوجد الكتابَ قد سَبقَ عليه؟

ج: هذا كلام باطل ليس له أصلٌ، وهو مُكذِّب للقرآن، فربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ قال: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، أَبى السُّجودَ ولم يسجد، وقال أيضاً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، فلو سَجدَ مع الملائكة ما قيلَ له هذا الكلام.